

## حيفا البداية وفلسطين المستقر كمال الخالدي

دمشق: دار الرواد، لا تاريخ. 374 صفحة.

يروى كمال الخالدي في هذا الكتاب سيرتين في سيرة واحدة: سيرة الكاتب وسيرة فلسطين معاً. وسيرة الكاتب تبدأ من ولادته في حيفا سنة 1936 لوالد من حيفا، وجد جاء من دمشق، وجدّة أصلها من صيدا في لبنان، ولعائلة ذات جذور حلبيّة أكيدة. وهذا الكاتب، الذي سيلمعه اسمه لاحقاً في السياسة والكتابة، إنما هو سلسل هذه المصائر المتشابكة التي أرغمتها على مغادرة موطنه في سنة 1947 إلى صيدا، ثم إلى دمشق، ليدرس في مدارسها ثم في مدارس القاهرة. وينهمك في العمل السياسي، ويهاجر أخيراً إلى الولايات المتحدة مع زوجته الصيداوية، وهناك يتعرف إلى أبناء عمه شمسي الذي بقي في حيفا وتزوج من الناصرة وتوفي على شاطئ المتوسط في سنة 1957. وهذه السيرة عبارة عن أحاديث استرسل الكاتب في تفصيلها إلى ابنته ريم وإلى ابنه أحمد، وإلى صديقه عمر قمحية، وإلى الياس زيدان وزوجته وفاء الجمال الصامدين في حيفا. فكأن كمال الخالدي أراد أن يجعل من هذه السيرة حلقة في سلسلة مستمرة من الأجيال المتعاقبة وذاكرتها التاريخية. ومع أنه أفاض في الكلام على مدينة حيفا وسكانها واقتصادها وتطورها الحضري والعمراني، وهي أمور نجدها في مختلف المصادر والمراجع، إلا أنه قدم لنا سيرة نمطية عن شاب من عائلة ميسورة طوحت الأيام، وجعلت مصيره مثيلاً لمصائر كثيرين من رفاقه أبناء النكبة الفلسطينية.

نعم. كمال الخالدي يتحدر من عائلة ميسورة، ولم يكن، على المستوى الاقتصادي، مثل معظم اللاجئين من أبناء القرى الذين فقدوا كل شيء في سنة 1948. فوالدته التي عاشت في حلب كانت تجيد القراءة (القرآن على الأقل)، ووالده كان يتقن الإنكليزية والتركية فضلاً عن العربية، وقد عمل في مصلحة سكة الحديد في حيفا. وهذه العائلة كان أولادها يستحمون في "بانيو" من التوتياء (ص 48)، ويأكل أفرادها إلى طاولة طعام، ولها خادمة مصرية، وكان كمال نفسه يلهو بسيارة صغيرة حمراء اللون وذات دواليب زرق (ص 48)، وهذه أمور لم تتوفر لمعظم أبناء اللاجئين حتى اليوم.

إذا كانت النكبة المحطة الرئيسية في ذاكرة كمال الخالدي، فإن دمشق كانت المحطة الأكثر تأثيراً في تكوين شخصيته وأفكاره وميوله الأدبية والسياسية. فقد شارك في تأسيس "رابطة الأدب والحياة" مع غسان كنفاني وبلال الحسن وقتادة الشريف وفضل النقيب وأحمد خليفة وعصام القاضي (ص 105). والغريب أن أي واحد من هؤلاء لم يبرز اسمه في عالم الأدب على الإطلاق، عدا غسان كنفاني، وإنما برزت أسماؤهم في عوالم أخرى كالسياسة والصحافة. وفي سنة 1956 انتمى إلى حزب البعث، وكان يتابع دراسته في مصر. وفي هذه الحقبة، قبيل الوحدة السورية - المصرية، انهمك، بقوة، في العمل السياسي والوظيفي، وعمل إلى جانب منصور الأطرش وياسين الحافظ وجبران مجدلاوي وعبد المحسن أبو مبرز وغيرهم، وساهم، وظيفياً، في "مؤسسة تنمية حوض الفرات"، وأصبح عضواً في القيادة العامة لطلائع حرب التحرير الشعبية ورئيساً لدائرة الإعلام التي كان بين أعضائها حسام الخطيب ومحمد الشاعر ومحمود فلاحه وجورج جبور وفايز قنديل. ومن الطرائف التي يرويها كمال الخالدي عن تلك الفترة أن المؤتمر القومي السادس لحزب البعث أقر، بناء على اقتراح قدمه خالد البشري، تأسيس لجنة خاصة بفلسطين. وقد تولى كمال الخالدي رئاسة هذه اللجنة التي وجد نفسه أمراً على عدد من العسكريين فيها، أمثال أمين الحافظ ومحمد عمران وسليم حاطوم ومحمد رباح الطويل وإبراهيم العلي. وللعلم، فإن هذه اللجنة هي التي أسست منظمة عسكرية فلسطينية باسم "الصاعقة". وهؤلاء العسكريون تصارعوا وتقاتلوا، وقاد بعضهم انقلابات ضد بعضهم الآخر، ومات اثنان منهم اغتيالاً وقتلاً.

\* \* \*

عانى كمال الخالدي أموراً كثيرة: خيباته في السياسة، وخيبات حركة التحرر الفلسطينية، علاوة على مشكلة ارتفاع ضغط العين التي أضيفت إلى ضغوط الحياة وهي كثيرة. ولعل هذه الأمور مجتمعة زينت له، في البداية، السفر إلى الولايات المتحدة الأميركية لمعالجة عينيه لدى الطبيب الفلسطيني المشهور منصور أرمللي الذي بدأ حياته في الجامعة الأميركية في بيروت شيوعياً، ثم صار لاحقاً من أبرز أطباء العين في المهجر الأميركي. وفي الولايات المتحدة قرر كمال الخالدي الاسترسال في العيش في ذلك المجتمع على أن يستمر في التردد على دمشق

وببيروت وصيدا؛ فهناك، في هذه المدن الثلاث، كانت ملاعب فتوته وأقران الشباب. ولعل إقامته في المجتمع الأميركي أتاحت له أن يكتب هذه السيرة المفعمة بالذكريات والحنين والمعلومات معاً.

ص.أ.ف.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
[http://www.palestine-studies.org/ar\\_index.aspx](http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx)